الفصل الثانى عشر

أيمن نور .. يفتح صفحات جريدة الوفد لليسار

مضى عام ١٩٩٠ فى مناكفات وظيفية، ومؤامرات صغيرة، يديرها وينظمها معظم أعضاء مجلس إدارة جمعية النشاط الاجتماعى، وكان رأس المؤامرات السيدة (س. ع)، التى تنحدر من أسرة تبين أن شقيقتها الكبرى ـ كانت تعمل عميدة لأحد المعاهد التعليمية ـ قد أزيحت من موقعها بسبب اتهامات ضدها باختلاسات مالية، علاوة على سلوكها التى اعتادت عليه بإبلاغ جهاز مباحث أمن الدولة عن طلاب معهدها النشطاء فى مجال المطالب المهنية أو السياسية.

وحدث أن علمتُ أثناء تنظيم إجراءات مصيف عام ١٩٩٠، أن السيد أمين الصندوق قد اعتاد الحصول على مبالغ مالية شخصية فى كل مرة يذهب فيها بفوج من أفواج العاملين إلى المصيف. وعندما واجهته بأن ذلك تربح من الخدمة العامة، فوجئت به وقد كان متحاملًا علىَّ بصورة غير مفهومة، يتعدى علىَّ بألفاظ جارحة، هى تمامًا ما يمارسه فى سلوكه منذ سنوات؛ مثل سطوه على حقوق زملائه فى الإدارة من سلع استهلاكية، فيحصل عليها لنفسه، أو لمنحها إلى رئيسه فى العمل تزلفًا ونفاقًا، فلم أتمالك نفسى وهاجمته بقسوة وكدت أن أضربه. ولم أكن أدرك أننى بهذا قد وقعت فى المصيدة التى أعدتها المدعوة (س. ع) وبقية أعضاء مجلس الإدارة بجمعية النشاط من أجل التخلص منى نهائيًّا.

وعلى الفور دارت ماكينة المؤامرة، فأُعِدَّتْ على عجل مذكرة لرفعها إلى رئيس الجهاز، ثم جرى التحقيق فى إدارة الشئون القانونية التى تتربص بى منذ فترة، وإذا المهزلة تكتمل؛ فيصدر القرار بتوقيع جزاء الخصم علىّ بخمسة عشر يومًا، وعلى الثانى بخصم خمسة أيام، ومن فورهم يصدر مجلس إدارة الجمعية قرارًا بفصلنا نحن الاثنين من مجلس الإدارة، وبعد فترة يُطلب من الرجل تقديم استعطاف، فيجرى إعادته إلى مجلس الإدارة.

صحيح أن هذا الجزاء القاسى قد جرى تعديله من جانب رئيس الجهاز، أثناء اجتماع ثنائى بيننا، مما أكد لى مدى تفاهة الإدارة العامة للشئون القانونية وعدم استقلاليتها مطلقًا، فكل الخيوط ممسوكة بالكامل من رئيس الجهاز شخصيًّا.

ومن ناحيتى وجدت أن البقاء وسط هذا المجلس، وهذا النوع من البشر، هو بمثابة خديعة للنفس، فتركتهم بعد أن حصلت على أول درس فى العمل فى أوساط جماعات الموظفين.

وانشغلت بقية الشهور الأخيرة من عام ١٩٩٠، وحتى منتصف عام ١٩٩١ بمسألتين:

الأولى: كانت تعديل أوضاع عملى داخل الجهاز؛ فلم تكن الإدارة التى نقلت إليها ـ خلسة ـ بالاتفاق بين لص «مشروع بنك المعلومات الإدارية» وبعض قيادات الجهاز، وهى الإدارة المركزية لوحدات التنظيم والإدارة تضيف إلى خبراتى المهنية والعلمية شيئًا جديدًا، بقدر ما كان العمل فى مركز المعلومات فى فترة تولى الأستاذ «أحمد كمال الدين فهمى». كما أن تجربة السفر إلى اليابان، قد ألزمتنى بضرورة تحسين أدائى ومهاراتى فى مجال الترجمة واللغة الإنجليزية.

ومن هنا كتبت إلى رئيس الجهاز وقابلته طالبًا إليه الموافقة على نقلى إلى الإدارة العامة للترجمة، وسألنى الرجل مندهشًا:

– اشمعنى الترجمة يا فاروق؟

أجبت:

– علشان تحسين مستوى اللغة يا افندم.

فأشر الرجل بالموافقة، ولم أكن أدرى أن هناك سأكون مع إحدى حكايات القدر الكبرى فى حياتى.

أما **المسألة الثانية** التى شغلتنى طوال هذه الشهور فقد كانت الكارثة الجديدة التى حلت على شعوب المنطقة العربية، سواء بضم وغزو «صدام حسين» للكويت فى الثانى من أغسطس، أو فى عمليات التدمير الممنهج التى قامت به القوات الأمريكية والغربية والعربية المتحالفة معها ضد العراق، والتى أودت به إلى حصار خانق استمر ثلاثة عشر عامًا، لم ينتهِ إلا بعد الغزو (الأمريكى ـ البريطانى) لهذا البلد فى التاسع عشر من مارس عام ٢٠٠٣.

وكان نشاطى ـ كغيرى من الوطنيين المصريين ـ يتمثل فى المشاركة فى بعض التظاهرات ـ كلما تمكننا من اختراق القيود الأمنية المشددة ـ أو بعقد بعض الندوات والمؤتمرات داخل مقرات بعض الأحزاب المعارضة، أو بالكتابة فى بعض الدوريات التى كانت تسمح بنشر بعض دراساتى هنا أو هناك.

وكان من ضمن تلك الدوريات المصرية مجلة «منبر الشرق» التى يتولى رئاسة تحريرها زميل الدراسة «د. رفعت سيد أحمد» وتصدر عن حزب العمل الذى يترأسه المهندس «إبراهيم شكرى» ويتولى أمانته العامة المفكر المرموق «عادل حسين».

فى أواخر عام ١٩٩١، وعلى وقع مؤتمر «مدريد» الذى نظمته الإدارة الأمريكية برئاسة «جورج بوش الأب» فى أكتوبر من ذلك العام، وكمحاولة للاستفادة من قوة الدفع التى صاحبت عملية تشكيل الكتلة العربية المتعاونة ـ إلى حد العمالة ـ مع السياسات الأمريكية سواء فى تدمير العراق وصدام حسين، أو فى إجراء تسوية سياسية للصراع العربى ـ الصهيونى، وفقًا للمنظور الأمريكى والإسرائيلى القائم على التفاوض المباشر، ووفقًا لمبدأ «الأرض مقابل السلام» دون أن يتحدد إطار لهذه الأرض فى ظل شرعية دولية نحيت جانبًا من مرجعية هذا المؤتمر.

طلب الصحفى الشاب «أيمن نور» و النجم الصاعد فى حزب «الوفد» والقريب الصلة بالرئيس التاريخى لحزب الوفد «فؤاد باشا سراج الدين»، من الدكتور رفعت

سيد أحمد، ومن غيره أن يعاونوه بالكتابة فى صفحتين من صفحات جريدة «الوفد» خصصتا لإشرافه إحداهما الصفحة السابعة تحت عنوان «مركز الوفد للدراسات السياسية والاستراتيجية»، تعالج قضايا الشئون الدولية والإقليمية من منظور تحليلى، والأخرى هى الصفحة السادسة تحت عنوان «قضايا فى دائرة الضوء» تتناول فيها بالدراسة والبحث مشكلات الوضع الداخلى فى مصر.

كانت الصفحتان السادسة والسابعة فى بدايتهما عام ١٩٩١ تتحسس أفقًا للتطور والانطلاق، اتصل الصديق «د. رفعت سيد أحمد» بالصديق «أيمن نور» وتبادلا الرأى بشأن انضمامى إلى صفحتى «أيمن نور» فى جريدة الوفد، ولم يكن هناك معرفة سابقة بينى وبين «أيمن نور» وكانت هذه هى بداية تعارف وعمل مشترك فى أكثر من حالة.

كان طموح «أيمن نور» بلا حدود، يكاد يكون أشبه «بالجنوح»، فالشاب يمتلك «كاريزما» خاصة به، ودماثة فى الخلق، وإنسانية تفتح له الكثير من مغاليق قلوب الناس، فذهب بطموحه داخل حزب الوفد إلى بعيد، مستندًا فى جزء منه على علاقته الوطيدة «بالباشا». وقد كان هذا بلا شك سلاحًا ذا حدين، قد يرفع صاحبه إلى القمة، وقد ينقلب الحال إلى أدنى القاع، وهذا ما حدث مع «أيمن نور»، تحديدًا فى حزب الوفد، حيث لم يتحمل بعض الطامعين والطامحين صعوده المستمر، فأخذوا فى الدس على الشاب لدى الباشا، حتى إذا وافته المنية عصفوا به إلى خارج ساحة الوفد تمامًا.

على أية حال، بدأت أولى مقالاتى فى جريدة الوفد فى شهر فبراير عام ١٩٩٢، وكنت أنتهج فيها أسلوب المزج بين أبحاثى ودراساتى ذات الطابع العلمى والأكاديمى، وبين أسلوب وطريقة العرض الصحفى، فصادفت نجاحًا لم أكن أتوقعه فى أحلى أحلامى وخيالاتى.

بدأت بسلسلة مقالات بعنوان «ماذا جرى لمصر .. والمصريين.. أزمة اقتصاد وأزمة انتماء» واستمرت زهاء شهرين متواصلين، كل مقالة تأخذ قرائى إلى ما بعدها، حتى

إن المفكر المرموق «د. جلال أمين» قد اقتبس عنوان مقالاتى تلك فى كتاب لاحق له صدر بعد ذلك بعدة سنوات.

وانتقلت بكتاباتى على الصفحة السابعة حيث الدراسات السياسية والاستراتيجية، ومسيرة التسوية الجارية فى«مدريد»، وكانت سلسلة مقالات جديدة بعنوان «محاذير استراتيجية حول مؤتمرات التسوية»، ثم سلسلة تالية بعنوان «مجال التنازلات العربية وحدود المساومات الإسرائيلية».

وكانت مقالاتى تستحوذ على الصفحة كاملة تقريبًا، سواء فى الصفحة السادسة أو السابعة، وهكذا شملت كافة القضايا الداخلية والإقليمية والدولية، واستمرت حوالى ٦٨ مقالة لمدة عام كامل، حتى إن رئيس تحرير جريدة الوفد «جمال بدوى» قد صرخ يومًا فى وجه الشاب «مصطفى» المعاون لأيمن نور، قائلًا:

– دا عبد الخالق فاروق أصبح أكثر شهرة من جمال بدوى!.

وكانت نذر الشر تستجمع خيوطها داخل جريدة «الوفد» من أجل اقتناص الفرصة للإطاحة «بأيمن نور» وبشلة اليساريين الذين جاء بهم إلى صفحات جريدة «الوفد» الليبرالية، وأضافت إلى الصحيفة حيوية غير مسبوقة منذ أن توفى مؤسسها الصحفى المرموق «مصطفى شردى».

وجاءت الفرصة لهؤلاء حينما صودرت جريدة الوفد مرتين فى المملكة السعودية ـ وهى إحدى الأسواق الهامة للجريدة ـ بسبب مقالات كنت قد كتبتها، إحداها عن خطيئة المشاركة فى حصار وتدمير العراق، والأخرى وردت ضمن سلسلة مقالاتى الأخيرة فى الجريدة، وكانت بعنوان «مصر تبحث عن بطل .. الوعى والأسطورة فى الضمير المصرى المأزوم»، وكانت هى القشة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون.

والحق أعترف بأن تجربتى مع «أيمن نور» كانت أكثر من رائعة، فمن ناحية لم يتدخل يومًا، أو أحد مساعديه فى مضمون مقالاتى، سواء بالحذف أو الإضافة، ولو بحرف واحد.

وبرغم النغمة العالية لصوت مقالاتى، ومجموعة الشباب الذين أتيت بهم ودفعتهم داخل الصفحتين للكتابة (على سعيد، محمد شكرى وغيرهما)، فقد كان لجودة المقالات وأفق تحليلاتها الاستراتيجية العميقة تأثير ملحوظ على مكانة «أيمن نور» باعتباره المشرف العام على هاتين الصفحتين، كما أنهما استحوذا على عقول وقلوب عشرات الآلاف ـ دون مبالغة ـ من القراء العاديين والمتخصصين على حد سواء، بل وحتى بعض الأجهزة الحساسة فى الدولة، كما سوف أروى بعد قليل.

وبقدر ما كانت كتاباتى فى جريدة «الوفد» إضافة ملموسة وجادة لتلك الصحيفة، كانت أيضًا إضافة هائلة لوجودى وكيانى ومسارى المهنى ككاتب صحفى وباحث فى القضايا الاقتصادية والاستراتيجية، ينظر إليه باحترام وجدية فى كثير من الأوساط البحثية والصحفية المصرية والعربية.

أما على مستوى وجودى الوظيفى داخل الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، فقد كان لتأثيرها طابع خاص ومميز، فمنذ تلك اللحظة أحاطتنى بهالة من الرهبة لدى القيادات الإدارية جميعًا دون استثناء، ولدى الموظفين أحاطتنى بمشاعر غريبة ومتناقضة؛ فقد نظر إلىَّ البعض منهم باحترام وحب، بينما تعامل البعض الآخر بانتهازية الموظف المعهودة، حيث فكرة المنفعة والإتيان بكل صغيرة وكبيرة من أجل إيجاد حل لها لدى «عبد الخالق فاروق»، حتى لو كان ذلك فوق طاقتى أو خارج إطار قدرتى، المهم أن يأتى صاحب الشكوى أو المظلمة إلىَّ يقذفها فى وجهى، ويتركنى لأعارك وأتشاجر من أجله سواء مع الوزير أو غيره من القيادات الإدارية.

لقد تعامل معى هؤلاء وكأننى «ركوبة» بالمعنى الريفى للكلمة، أو حمار يحمل متاع الناس، أو حتى أوساخهم وبقاياهم، لأضعها حيثما يريدون، وعندما تنتهى مهمتى بعدها فلأذهب إلى الجحيم!.

تكرر هذا مرات وراء مرات، وأحيانًا كانت تصل الصفاقة بهؤلاء، إلى أنهم بعد أن أبدأ الدخول فى معركتهم، بما قد يصل بى إلى حد إحالتى إلى التحقيق لدى إدارة الشئون القانونية، أو حتى لدى النيابة الإدارية، كانوا يتوارون تمامًا عن الأنظار، وإذا تصادف أن قابلونى فى مكان ما فى الجهاز، تجنبوا إلقاء تحية الصباح علىَّ خوفًا من أن يعرف الوزير!.

هل تتصوروا سلوكًا كهذا؟

هل تتخيلون مقدار الأذى النفسى الذى أحدثه داخلى؟

والأسوأ من كل هذا، أن بعض أصحاب الحاجات والمطالب هؤلاء، كانوا يتبرأون منى، ومن مطالبهم حينما يجدون أنفسهم أمام «الوزير» أو مدير مكتبه، فيعلنون أمامهما أنهم لم يطلبوا منى شيئًا.

على أية حال، كانت فترة الكتابة فى جريدة «الوفد» هى أجمل وأفضل ما حدث فى حياتى طوال السبعة والثلاثين عامًا من عمرى، وقد كانت نهايتها فى التاسع والعشرين من مايو عام ١٩٩٣، حينما نشرت المقالة الثانية من سلسلة المقالات الشهيرة «مصر تبحث عن بطل» فإذا «بالباشا سراج الدين» يثور على عبارة وردت فى صلب المقال تتحدث عن ظاهرة البطل «الكاريزمى» فى علم الاجتماع السياسى أو البونابرتى فى المفهوم الماركسى ـ وتقدم نماذج وأمثلة لهؤلاء القادة فى التاريخ المصرى والعالمى مثل «سعد زغلول»و «جمال عبد الناصر»و «مصطفى النحاس»و «ماوتسى تونغ» وغيرهم.

فإذا بالباشا يصرخ فى وجه محدثيه قائلًا:

– كيف يشبه هذا الولد سعد زغلول باشا بذلك الكولونيل ناصر.

وتزامن مع هذا أن المقالة الثانية التى نشرت قد أثارت بعض اللغط فى بعض دول الخليج التى نظر بعض قادة الطائفة الشيعية فيها إلى أن هناك تناولًا غير مقبول لفكرة «المهدى المنتظر»، وهكذا بدأت الثعابين فى جريدة الوفد تخرج من جحورها، فزميل مثل «وجدى زين الدين» محرر مساحة بريد القراء، يصرخ وسط زملائه فى صالة الديسك:

– دول جماعة شيوعيين.

وإذا بالشاب «سعيد عكاشة» يتبرع بالتوجه إلى مكتب مدير التحرير «عباس الطرابيلى» ليخبره بأنه ليس من ضمن تلك المجموعة الشيوعية التى اخترقت الجريدة بواسطة «عبد الخالق فاروق» ومجموعة من أعوانه.

وعلى الفور تحرك مدير التحرير إلى صالة الديسك، ليسحب المقالة الثالثة التى كانت تعد للنشر ويقف وسط الجميع ليردد:

– هو مين عبد الخالق فاروق ده؟

وإذا بالعاصفة تهب مقتلعة صفحتى «أيمن نور» ذاتهما، ويبدأ «جمال بدوى» فى نشر سلسلة مقالات ـ مجهولة المصدر ـ حول تاريخ حزب الوفد مكانهما.

وتنتهى بهذا تجربة حيوية، أعطت لجريدة الوفد، بقدر ما أعطتنا المساحات والقراء والتعبير الحر عن وجهات نظرنا وتحليلاتنا السياسية، والغريب أن «أيمن نور» وسط هذه العاصفة قد صمت، ولم يستطع أن يتولى الدفاع، أو حتى صد الهجمة، وفضل أن يحنى رأسه أمام العاصفة، ولكنه لم يدرك وقتها، أنها لن تمر قبل إن تطيح برأسه من الحزب بعد عدة سنوات قليلة، ليبدأ الشاب فى البحث عن حزب جديد له، وأبحث أنا عن مساحة نشر فى مكان آخر.

□ □ □